وقد ظلت اللغة العربية على متانتها فى عهد الرسول ، وفى ايام الخلفاء الراشدين ، وما سجل من الهفوات واللحن ، على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئا يذكر بالقياس الى ما بلغته العربية من فوضى فيما بعد .

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال فى تحقيق اللغة، وتمييز صحيحها من فاسدها ، وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم، لم يتح لها تاثير كبير من حيث الذيوع والانتشار .

مراجع هذا البحث

1 ـ « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي جـ 1 القسم اللغوي ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي .
2 ـ كتاب « فقه اللغة » للصباحي طبعة المؤيد 1910 م
3 ـ كتاب « غرائب القرءان » للنيسابوري .
4 ـ مقدمة ابن خلدون ـ طبعة كتاب التحرير 1386 هـ القاهرة .
5 ـ كتاب « الخصائص » لابن جنى جـ 1 مطبعة الهلال بالفجالة مصر 1913 م .
6 ـ كتاب « لسان العرب » لابن منظور طبع دار الصاوي 1355 هـ مصر .
7 ـ كتاب « المحتسب فى القراءات » لابن جنى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
8 ـ كتاب « المقتضب » للمبرد الجزء الاول والثاني طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 القاهرة .
9 ـ كتاب « تحرير التحبير » لابن ابي الاصبع ـ طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1383 هـ القاهرة .
10 ـ كتاب «الاغاني» لابي فرج الاصفهاني طبع دار التحرير للطبع والنشر 1384 هـ القاهرة .
11 ـ كتاب « تاريخ الادب الجاهلي » لعميد الادب العربي الدكتور طه حسين . القاهرة .
12 ـ كتاب « تاريخ ادب العرب » لمصطفى صادق الرافعي .
13 ـ كتاب « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ـ مجموعة بحوث القيت بجامعة برنستون بامريكا سنة 1953 م طبع مؤسسة فرانكلين .
14 ـ كتاب « الاتقان فى علوم القرءان » الجزء الاول للسيوطي . طبع الحلبي بمصر 1965 م.
15 ـ كتاب « اللهجات العربية » لابراهيم نجا ـ مطبعة السعادة بمصر 1965 م .
16 ـ كتاب « الزينة فى الكلمات الاسلامية »للرازي جـ 1 الطبعة الثانية ـ دار الكتاب العربي
17 ـ مجلة «اللسان العربي» العدد الثاني ـ الرباط ـ المغرب .
18 ـ كتاب « اشتات مجتمعات » لعباس العقاد ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر .
19 ـ مجلة « الرواد » العدد الثاني من المجلد الرابع ـ 1968 م ليبيا .
20 ـ مجلة «اللغات» المجلد الاول ، تصدر عن مركزاللغات بتونس 1964 م .
21 ـ مجلة « المعرفة » المجلد الاول تصدر بالمملكة العربية السعودية 1379 هـ .

اللغات السامية
مجال في علم اللغات

محمد سليم رشداف

الاستاذ المحاضر في الجامعة الاردنية

ان أول ما نلتفت اليه حتى نتحدث عن اللغات السامية في مجال علم اللغات ، هو ذلك المصدر البعيد، الذي نبعت منه هذه اللغات السامية جميعا، وتشعبت عنه في الشمال والجنوب في الاقطار المختلفة التي استقر فيها ابناء هؤلاء الساميين منذ اقدم العصور .

وقد اختلف العلماء في تعريف هذا المصدر البعيد وفي نعته وتسميته ، فمنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية هو اللغة (السامية الاولى) التي نطق بها في اعماق الدهر اقوام زالت بزوالهم وفنيت بفنائهم ، وبقيت منها ظلال ورسوم ، يلمحها الرائي على السنة احفاد اولئك الاقوام ، الذين تنوعت السنتهم باختلاف مواطنهم (1) في الشمال والجنوب .. »

ومنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية ، انما هو اللغة (العربية الاولى) ، التي نطقت بها سبا في غابر الدهور ، حين عمرت اليمن وجعلت منها موطنا لها ، وجعلت تبتعد هذه الساميات عن امها السبئية بتراخي العصور ، وتنائي الديار ، واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الاقوام (2) ممن جاورهم في اصقاع الارض .. ».

ثم ان هؤلاء العلماء قسموا هذه اللغات السامية الى اسر ، عرفت فيها اللغة الكنعانية وما تفرع منها بالاسرة الغربية ، وعرفت فيها اللغة البابلية وما تفرع منها بالاسرة الشرقية . ثم عرفت فيها اخيرا اللغة العربية وجارتها الحبشية وما تفرع منها بالاسرة الجنوبية .

وان موضوعنا الذي نخوض فيه يقتضي ان نطيل الوقوف عند الكنعانية التي اعتبرت الاصل الذي تشعبت عنه لغات الاسرة الغربية . وكانت اللغات العبرية واحدة من هذه اللغات .

وعلى الرغم من ان هذه اللغات العبرية قد تسرب اليها الكثير من الدخيل ، بسبب هجرة

---

(1) ذكر هذا الراي المستشرق (اولس هاوزن Ols Housen) في صدر كتابه ، الذي تحدث فيه عن « اللغة العبرية وتاريخ نشاتها » . والكتاب موضوع في اللغة الالمانية ومترجم الى الانجليزية .

(2) ذكر هذا الراي المستشرق اليهودي : (ليون ماحرز Lion Mahraz) وكذلك الدكتور علي العناني ، وذلك في كتابهما الذي صدر بعنوان: « الاساس في الامم السامية ولغاتها » وقد وضعاه في اللغة العربية .

ابنائها العبرانيين الى مصر ، واقامتهم الاجيال الطويلة فيها ، ثم تشردهم بعد ذلك فى بلاد (ملكان) قرابة نصف قرن من السنين ، وهي ايام التيه فى سيناء .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه اللغة ظلت قريبة الشبه من امها الكنعانية ، وغير بعيدة عنها . حتى كان اليهود انفسهم يصفون لغتهم العبرية ، بانها (لسان كنعان) . وقد ورد ذلك صراحة ــ وفى مواطن كثيرة ــ فى اسفار كتابهم المقدس .

* * *

وان اللغة العبرية لم تشارك الكنعانية فى اصولها فحسب ، بل شاركتها فى حروفها ، ومن اجل ذلك كتبت العبرية ــ اول ما كتبت ــ بالحروف الابجدية الكنعانية ، وظلت تكتب بها طوال العهد الذى مر بالعبرانيين منذ استوطنوا ارض كنعان ، الى ان كان السبي وخراب بيت المقدس . وكان شاهد ذلك ، النقش الذى خلفوه فى نفق (عين سلوان) عند الزاوية الشرقية من سور مدينة القدس الحالي (3) ، كما كان شاهد ذلك النقود التى عثر عليها فى اطلال بيت المقدس من ايام عهد (الهيكل) ومن ايام عهد (المكابيين) الذين شردهم الرومان بعد ثورتهم عليهم.

وقد بقي من آثار اللغة العبرية ــ التى هي بنت الكنعانية ــ الكتاب المقدس فى عهده القديم ، الذى يدل عليها اكمل دلالة ، ويسهل دراستها للباحثين ، ويقدم لهم صورة تكشف الكثير من ملامح امها الكنعانية ، التى كان من بنائها الى جانب العبرية : الفينيقية والنبطية والعمورية والموءابية ، وسواها من ساميات الاسرة الغربية .

وحين نبتغي مقارنة لغات الاسرة الغربية ، بلغات غيرها من بنات الاسرتين الباقيتين ، لا نجد امامنا ما يصلح لمثل هذه المقارنة غير لغتين النتين فقط ، هما : اللغة العربية من بنات الاسرة الجنوبية ، ثم اللغة الآرامية (ام السريانية) من بنات الاسرة الشرقية . وذلك لان ما عداهما ، اما انها ضاعت معالمها الاصيلة ، لكثرة ما اقتحم عليها من دخيل الشعوب المجاورة ، كاللغة الحبشية فى الاسرة الجنوبية واما انها زالت بزوال اهلها ، كالآشورية، والكلدانية. وسواهما من بنات الاسرة الشرقية المتفرعة عن البابلية .

ولما كانت اللغة العربية هي موضع الاهتمام كله بالنسبة لنا ــ نحن ابناءها الناطقين بها ــ وفى ظلها تدرس اللغات السامية من اجل ان نستكمل الاحاطة بها ، ونتوغل الى جذورها البعيدة خلف اعماق الدهر ، حين كانت المبتدأ الذى منه تشعبت هذه اللغات السامية جميعا ، كما تكاد تجمع آراء الباحثين ، لذا فان مثل هذه المقارنة بينها وبين ما نتوصل الى معرفته من بنات هذه الاسر جميعا ، هو نهاية المدى وخاتمة المطاف والغاية التى نستهدفها من هذه الدراسة .

اذن بقي علينا ان نلتمس مثل هذه المقارنة بينها وبين اللغة الآرامية (ام السريانية) ، وعندها لابد لنا من الوقوف عند مدينة (الرها) لنلم بتاريخها ، ونعرف اخبار علمائها الذين احفوا لغتهم بالكثير الكثير من روائع المؤلفات فى مواضيع مختلفة . ثم نلتفت بعد ذلك الى الاثر الخالد وهو الانجيل فى اللغة الآرامية لغة السيد المسيح ، الذى كان وجده السبب فى بقاء هذه اللغة تتردد فى ساحات الكنائس على السنة المصلين. ورغم ذهابها من حياة الناس ، حيث استبدل بها اهلها فى كثير من ارجاء الارض لغة الشعوب التى فرضت عليهم سلطانها .

ولن ينقص من الاهتمام بهذه اللغة ، كونها لغة انحسر ظلها ، واصبحت فى عديد اللغات التاريخية ،

---

(3) اسمها فى لغة الكنعانيين القدماء (شلوح) وكانت تطلق على الينابيع وعنهم نقلها العبرانيون، وفى اللغة المؤابية تقابلها كلمة : (اشوح) ، وقد وردت فى (حجر ذيبان) ، واشير بها الى مورد الماء . وهذا الحجر عثر عليه فى الاردن على مقربة من بلدة مادبا.

(4) الرها: اسمها الآرامي (ارهولي) ، واسمها اليوناني اديسا ــ Edessa) ، وقد كانت حاضرة العلم . وفيها قامت لها مدارس تنقل الحضارتين الافريقية والهندية الى ابناء المشرق ، ويؤلف علماؤها فى ذلك الكتب الكثيرة . وهي التى اعتمدها المترجمون فى عهد الخليفة المامون العباسي.

التي تدرس من أجل ان تبرز غيرها ، بسبب صلتها بها وقربها منها ، واشتراكها معها في الاصول والاعراق، وذلك حالها مع اللغة العربية وموضعها منها ؛ ومكانها في ابراز أصولها البعيدة ، ومن اجل هذا :

فان دارس اللغة العبرية في اصولها القديمة والحديثة ، باعتبارها لغة تاريخية ذات علاقة وثيقة – من ناحية الاصول والمصادر – باللغات السامية في أسرها الثلاث ، وبالتالي باللغة العربية ، يحسن به ان يحيط الى جانبها باللغة الآرامية ، ولو وقف ذلك عند حد قراءة النصوص ، وتصريف الافعال والاسماء مع الضمائر ، والالمام بتاريخ هذه اللغة ، ومدارس علمائها يوم كانت في عهود ازدهارها ونهضتها ، وبذلك يكون قادرا على المقارنة بينها وبين العبرية من ناحية ، ثم المقارنة بينهما معا وبين اللغة العربية من ناحية اخرى .

* * *

وحين نبلغ هذا المدى ، يجدر بنا ان نعلم بأن مقارنة لغة بسواها من اللغات القريبة منها او المشاركة لها في اصولها – كما هو الحال بين اللغات السامية على اختلافها – انما هو علم له قواعده واصوله ، يسمونه (علم اللغات) ، وهي تسمية كان لها مدلولها منذ عهد اليونان الاقدمين ، حين كانوا يحملون مشعل المعرفة لمن عاصرهم من اهل زمانهم ، وكانوا يلفظونها يومذاك (فيلولوجيا) وهي مركبة (5) من كلمتين : (فيولوس) ومعناها صديق ، و (لوجوس) ومعناها كلمة ، وعلى ذلك يكون معنى الكلمتين حين اجتمعتا معا هو : (صديق الكلمة) وقد رمزوا بها الى العالم الباحث .

واول من نطق بالكلمة المركبة هو الحكيم (افلاطون) ، واراد بذلك توجيه الرغبة الى البحث العلمي . ثم صار هذا اللفظ يطلق على كل تفرغ الى استيعاب المعرفة ، ايا كان نوعها ما دامت هذه المعرفة تتناول شأنا من شؤون اللغة ، والبحث في تاريخها واصولها ، وقد استعمل هذا اللفظ قبل الميلاد في مدرسة الاسكندرية للدلالة على معرفة علوم اليونان والرومان في لغتيهما الاغريقية واللاتينية .

ثم تجوز الناس فيه فاذا هم يطلقونه على كل علم من العلوم مهما كان نوعه ، ومهما اختلف موضوعه، ومهما تشعبت فيه المسالك واختلفت الاسباب . واستمر به الحال على هذه المنوال ، حتى كان بدء عهد النهضة العلمية في ايطاليا ، وعند ذلك عاد لهذا اللفظ معناه ، الذي حدد له ايام مدرسة الاسكندرية . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، اتسعت دائرة هذا الفن اللغوي ، فشمل البحث فيه كل لغات بني الانسان ، وليس فقط اللغتين : اليونانية والرومانية ثم ما في هذه اللغات الانسانية من انتاج عقلي ، حتى اصبحت كلمة (فيلولوجيا) تدل على المعنى الآتي وهو : « علم اللغات ، الباحث عن جميع الدراسات ، لدى كل امة من الامم ، لمعرفة اللغات واصولها ؛ وكل ما انتجته معرفة الانسان ».

لذلك كان على (علم اللغات) ان يقدر درجات الرقي الانساني العام ، في اللغة والادب وفي النظم الاجتماعية وفي الحياة الفردية ، وفي الدين والصناعة والعلوم . ومن اجل ذلك صح ان يقال : (الفيلولوجيا المصرية) او (اليونانية) او (العربية) او (السريانية) او (العبرية) او (الهندية) و ما سواها . والمراد من ذلك هو كل ما لهذه الامم واحدة واحدة من انتاج عقلي ، ونصيب مدني مدون في لغاتها .

على أن العلماء الذين تفرغوا لدراسة (علم اللغات) ، اصطلحوا ازاء هذا المعنى العام على وصف (الفيلولوجيا الرتيبة) او (الفيلولوجيا المحتذاة) . وذلك عند الاشارة الى ما كان للاغريق والرومان (6).

وغرض علماء اللغات عندها من ذلك ، هو الاشارة الى ما كان يقصد بمدلول (الفيلولوجيا) في مدرسة الاسكندرية ، من انها العلوم اليونانية والرومانية

---

(5) فيلولوجيا : هذا التركيب المزجي يكتب باللاتينية (Philologia) كما ان كلمة (فيلوس) : تكتب باللاتينية (Philos) وكلمة (لوجوس) : تكتب باللاتينية (Logos) ، وذلك لمن اراد البحث عن مدلولها مفصلا في المراجع غير العربية .

(6) الرتيبة : ومثلها كذلك (المحتذاة) ، ترجمة حرفية للاصل اللاتيني وهو (Classique) الذي كثيرا ما يستعيرونه الى العربية بلفظه حين يقولون : (كلاسيكي) .

القديمة ، وعلوم (التحرر الانساني) التى ابتدات منذ القرن الثاني قبل المسيح ، فى مدرسة الاسكندرية المذكورة (7) ، والتى ظهرت بقوة فعالة من جديد فى عهد احياء العلوم .

* * *

ويمكن حصر (الفيلولوجيا) المحتذاة بعد عصر احياء العلوم فى (ايطاليا) فى اربعة ادوار وان تداخل بعضها فى البعض الآخر .

الدور الاول : وهو (الدور الايطالي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن الرابع عشر الى منتصف القرن السادس عشر .

الدور الثاني : وهو (الدور الفرنسي) ويمتد تاريخه من منتصف القرن السادس عشر الى أواخر القرن السابع عشر .

الدور الثالث : وهو (الدور الهولندي البريطاني) الذى بدا تاريخه من أواخر القرن السابع عشر ، واستمر الى نهاية القرن الثامن عشر .

الدور الرابع : وهو الاخير ويسمونه (الدور الالماني) ، اذ بدات به المانيا من أواخر القرن الثامن عشر ، ولا يزال فى نموه المطرد حتى الآن .

ولو ذهبنا نحصي ما انتجه كبار الباحثين والمفكرين من العلماء فى هذا المجال ابتداء من (الدور الاول) ، حتى (الدور الاخير) ، لضاق بنا الحصر لكثرته البالغة .

* * *

والى جانب (الفيلولوجيا الرئيسة) ، ابتدات (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات)، وذلك فى أواخر القرن الثامن عشر ، فافردت للبحث اللغوي ، فى كل اللغات الانسانية قديمة وحديثة ، حية وميتة ، وذلك لمعرفة ما فى هذه اللغات جميعها من انتاج عقلي ، فى مجالات الدين، والعلم، والفلسفة، والادب ، وتاريخ الادب، والمقارنات اللغظية، والمعنوية ولذلك سميت (الفيلولوجيا العامة).

وقد وصلت ابحاث هذا العلم اللغوي الشامل الى نتائج كبرى ، غيرت وجه التاريخ الانساني ، واقامت النهضة العلمية الحديثة ، على اسس ثابتة ، ودعائم قوية ، وكونت علوما مستقلة ما كانت لتظهر فى عالم الوجود ، لولا علم اللغات .

* * *

واما ما حصلت عليه البشرية من فوائد (علم اللغات) ومنافعه الكبرى ، فقد كان كثيرا لا يحصى، وحسبنا ان نذكر من ذلك انا بفضل هذا العلم ، توصلنا الى معرفة العاديات وحل النقوش والخطوط القديمة ، ومعرفة لغات هذه الخطوط وتلك النقوش، ومنها الهيروغلوفية والكتابة السنسكريتية ، والخط المسماري فى اللغات : السومرية والبابلية والآشورية.

وبينما كان التاريخ العام يستند الى قاعدته الاسطورية القديمة ويعتمد على روايات الكتب المقدسة، ويرى فى رحلات الرحالين ، واقوال الرواة ، والاخبار التى تقوم على الحدس والتخمين ، بينما كان التاريخ العام كذلك ، اذ بهذا العلم يزحزحه بقوته الجبارة ، عن مكانته تلك ، ليرتكز على الادلة الملموسة والشواهد المرئية ، من الآثار القديمة ، والعاديات السالفة والوثائق التاريخية المدونة ، والمخطوطات القديمة ، فيغير بذلك وجه التاريخ العام تغييرا كليا، ويقسمه الى قسمين :

الاول : ويتناول ما دونت حوادثه الآثار ، ودلت عليه السجلات الرسمية ، واوضحته واقرته العلوم الطبيعية التجريبية ، ويعرف بالتاريخ الصحيح .

والثاني : ويتناول التاريخ المروي، او التاريخ الاسطوري . وهو ما لم يتوافر فيه ما توافر فى التاريخ الصحيح من ادلة وبراهين . على ان هذا النوع

---

(7) التحرر الانساني : ترجمة حرفية كذلك لكلمة (Humanism) التى يستعيرونها هي الاخرى الى العربية حين يقولون : (هيومانزم).

من التاريخ لا يكون محلا للطعن او الرفض الا اذا جاءت البراهين الاثرية ، والنتائج العلمية الطبيعية بعدم صحته ، والا بقي الحكم له او عليه للمستقبل ، وما عسى ان تاتي به البحوث اللغوية الاثرية ، او تجارب العلوم الطبيعية مما يؤيده او ينفيه .

* * *

ومن فوائد علم اللغات ايضا ، دراسة العقليات القديمة، وتطور الفكر الانساني ، ومدنيات الاجناس البشرية ، وروابط الامم والشعوب ، ومكانتها في المجهود العقلي الانساني والانتاج الاجتماعي المدني.

وقد انتج (علم اللغات) علوما كثيرة ، لها اهميتها الكبيرة في حياة الانسان وكذلك في ثقافته العامة ، منها :

(علم مقارنة اللغات) مقارنة لفظية ومعنوية ، و (تاريخ ادب اللغة) ، بعد ان كان ادبا فقط ، و (تاريخ آداب اللغات المقارن) ، و (علم فقه اللغة) ، و (النقد الفني) ، و (النقد الادبي الكامل) . وكان هذا العلم الاخير موجودا من قبل ، ولكن على مستوى لا يجاوز حد البساطة في اذواق الادباء والمتاخرين والمتادبين من (8) اسلافنا القدماء.

وخلاصة القول ، فان (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات) ، لم يجاوز كونه وليد القرن التاسع عشر ، وان ما تقدم هذا العهد من الاشتغال بقواعد اللغتين الاغريقية واللاتينية ، وما تقدمه من الابحاث المستفيضة في ضوابط اللغتين العربية والعبرية . ان ذلك كله لم يصل الى توسيع دائرة البحث اللغوي الذي يمكن ان تسمى نتائجه (علم اللغات) . وان الفكرة المتطرفة القائلة بان (اللغة العبرية) هي اللغة الانسانية الاولى، كانت مثبطة للهمم في البحث اللغوي الحر .

على ان التقارب بين اللغتين : العبرية والعربية، دفع المستشرقين اليهود ـ منذ القرن العاشر الميلادي ـ الى البحث والمقارنة بينهما من جهة ، وبين (العبرية) و (الآرامية) من جهة اخرى . وفي القرن السابع عشر ادرك المستشرقون مدى القرابة بين اللغتين : (الحبشية) و (العربية)، فدفعهم ذلك الى البحث عن هذا التشابه ، بين (العربية) واللغات السامية الاخرى، فوصلوا من ذلك الى معرفة المجموعة السامية .

وفي القرن التاسع عشر ، وصل الباحثون بفضل (علم اللغات)، الى الكشف عن العلاقة بين السنسكريتية (الهندية القديمة المقدسة) وبين الفهلوية (الفارسية القديمة) من جهة ، وقرابتهما الى اللغات الاوروبية من جهة اخرى ، فوصلوا من ذلك الى تكوين مجموعة (اللغات الآرية) ، او (الهندوجرمانية). وذلك الى جانب المجموعة المتقدمة، التي عرفت بمجموعة (اللغات السامية) . ومن هناك انطلقوا الى دراسة اللغات الاخرى في مختلف انحاء هذا الكون الفسيح، فوصلوا من ذلك الى سلسلة طويلة يضيق عنها الحصر .

المراجع :

1 ـ كتاب الاساس في الامم السامية وشعوبها ولغاتها ، للدكتور علي العناني ورفيقه ، ط 1 الجزء الاول . القاهرة ـ مطبعة بولاق 1925، ومن مواطن مختلفة فيه .
2 ـ كتاب تاريخ اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنسون ، وفيه بحث عن اللغات السامية جميعها وشواهد وشروح ، وقد اعتمدت الكثير منها . ط 1 (القاهرة) 1929 .
3 ـ كتاب بروتو كولات حكماء صهيون ، من الاجزاء الاربعة . وخاصة ما تناول العبرية وما جاورها من لهجات كنعانية ، تاليف عجاج نويهض . ط 1 . بيروت 1967 .

(8) فقه اللغة : كان هذا العلم معروفا ايام حضارة العرب ، ولكن في مدلول محدود لا يجاوز حقيقة الفاظ اللغات وكلماتها . وفيه الف الثعالبي كتابه: (فقه اللغة). وهو اليوم علم واسع ، يتناول فيما يتناوله في اللغات الحديثة ، العلم الذي يطلقون عليه : (Etymologie)

التفاعل الحضاري في تكوين اللغة وتطويرها

الاستاذ محمد المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

ان بين الاسلام واللغة العربية صلة وثيقة وتلازما طويل الامد عميق الغور عبر الزمان وعلى مر العصور وفي آفاق الارض التي وصلا اليها وبلغا حدودها وليس التساؤل عن وجود هذه الصلة فتلك بديهية مستقرة في الاذهان ولكن عن طبيعة هذه الصلة واسبابها وجوانبها وتجلية لهذا الموضوع نعرضه من جوانب مختلفة ونحاول ان نبرز مواطن اللقاء وانواع الارتباط بين الاسلام واللغة العربية .

اولا : الارتباط التاريخي :

اللغة العربية كما هو معلوم لغة معربة في القدم استقلت عن اخواتها الساميات وتميزت منهن بخصائص واخذت صيغا واشكالا انفردت بها وظهر الاسلام فكانت هي اللغة التي حملت رسالته وعبرت عن مبادئه وتعاليمه فنزلت آيات القرآن الكريم بها حتى اتم الله آياته فكان القرآن الكريم الكتاب العربي المبين كما وصفه فنزله سبحانه في عدد من آياته :

« انزلناه قرآنا عربيا » 12 ـ 2 و 20 ـ 113

« اوحينا اليك قرآنا عربيا 42 ـ 7 ، « انا جعلناه قرآنا عربيا » 43 ـ 3 ، « بلسان عربي مبين » 26 ـ 195 وآيات اخرى بهذا المعنى .

وكانت السنة اي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله التي رواها الصحابة المصدر الثاني للاسلام عربية اللغة كذلك وهكذا ترافق الاسلام واللغة العربية منذ ذلك الحين وسارا معا عبر القرون فكانت اللغة العربية معبرة عن الاسلام وحضارته وكان الاسلام متخذا من العربية وسيلة للتعبير عن عقيدته واحكامه واستمر ذلك حتى العصر الحاضر .

ثانيا : الارتباط الجغرافي :

ولئن كان الاسلام قد عم السواد الاعظم من العرب في وقت مبكر فانه سرعان ما تجاوز الدائرة العربية الى ما هو اوسع منها فدخل بلادا وعم شعوبا ليست العربية لغتها فنشر العربية في قسم من هذه البلاد حتى اصبحت لغتها الوحيدة وذلك كبلاد الشام والعراق وشمال افريقيا وانضافت شعوب هذه البلاد الى الدائرة العربية وان كانت لبعضها سابقة صلة بالعروبة ثم تجاوز الاسلام هذه الدائرة الى بلاد اعجمية اللغة فدانت شعوبها بالاسلام فكانت العربية بالنسبة اليها لغة الدين الجديد المشتمل على عبادات قوام شعائرها اللغة العربية وعلى معاملات

واحكام انما تؤخذ من مصادرها العربية في القرآن والسنة واقوال السلف وهكذا ظهرت احداث جديدة هامة نلخصها فيما يلي :

1 ـ اصبحت العربية لغة الثقافة بالنسبة الى الخاصة فنشأت طبقة من علماء الدين من الاعاجم تعلموا العربية وحذقوها ثم اتسع الامر فكانت لغة الثقافة بوجه عام ولم تقتصر على الثقافة الدينية اذ اصبحت لغة الحضارة الاسلامية في جميع ميادينها وتكون على مر العصور ذلك الانتاج الضخم في ميادين الفقه والعلوم الاسلامية واللغة والادب والفلسفة والتصوف والتاريخ والطب والعلوم اشترك في تكوينه ابناء البلاد التي دانت بالاسلام والتي غدت جزءا من الدولة الاسلامية ولو لم يكونوا عربا في انسابهم ولغاتهم .

2 ـ اثر العربية في لغات الشعوب الاسلامية :

وفي خلال هذا التمازج اللغوي والتفاعل الحضاري دخلت الفاظ عربية كثيرة في لغات تلك الامم التي دخلت في الاسلام سواء اكان من الفاظ العبادات ام كانت من الالفاظ التي ادخل الاسلام مفاهيمها الجديدة كصفات الله تعالى والمعاملات الفقهية والاحكام القضائية والتنظيمات الادارية والسياسية والمفاهيم الاخلاقية والدينية وشاعت هذه الالفاظ ودخلت في لغات تلك الاقوام .

3 ـ اصبحت اللغة العربية مصدرا تنهل منه تلك اللغات ما تحتاج اليه من الفاظ حضارية جديدة اما لفقدان هذه الالفاظ فيها او لقصورها عن توليدها او رغبة في جمال اللفظ العربي المعبر عنها .

وهكذا دخل عن هذه الطريقين كثير من الالفاظ العربية في اللغات الفارسية والتركية والكردية والسواحلية وغيرها بنسبة كبيرة .

4 ـ ونضيف الى ذلك امرا آخر ذا شان كبير وهو شيوع **الحرف العربي** باعتباره اداة لكتابة لغات الشعوب الاسلامية فاصبحت اللغة الفارسية والتركية والاوردية والجاوية (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالحروف العربية وقد وضعت للاصوات التي ليس لها في العربية حرف يصورها اصطلاحات خاصة كالباء المنقطة بثلاث نقط لرسم حرف الـ (P) في الفارسية والتركية وغيرها من الحروف التي ليست في العربية .

وهكذا كان سببا في **انتشار الكتابة العربية** او الرسم العربي في دائرة واسعة جدا تشمل شعوبا كثيرة مختلفة اللغات فكان بذلك حدا ادنى من التفاهم عن طريق الكتابة والحروف وهذه ظاهرة اجتماعية لغوية ذات آثار بعيدة في تفاهم الشعوب والتقائها وتعاونها تشبه ما عند الامم الاوربية التي تستعمل الحروف اللاتينية وتشترك في عدد من المفردات .

وهكذا فان الاسلام كان سببا في انتشار العربية لدى نخبة عالية من ابناء الشعوب التي تدين بالاسلام والمنتشرة في اقطار آسيا وافريقيا وفي انتشار عدد كبير من الالفاظ العربية في لغاتها وفي استعمال الحرف العربي وذلك كله يسهل تعليم اللغة العربية مع وجود الدوافع الدينية والثقافية لتعلمها وهي فعلا تعتبر اللغة الثانية في كثير من هذه البلاد . بل ان ثمة عددا كبيرا من المدارس والمعاهد والجامعات تعلم باللغة العربية او تجعلها في المحل الاول بعد لغة البلاد في كثير من البلاد الاسلامية كايران وباكستان واندونيسيا .

الارتباط الفكري والحضاري :

ان الاسلام اذ اتخذ من العربية لغته منذ ظهوره استعمل مفرداتها للدلالة على مفاهيمه الجديدة فاكتسبت كثير من الالفاظ معاني جديدة حملها الاسلام وكثيرا من ما نسي المعنى اللغوي الاصلي وبقي المعنى الجديد كلفظ الجهاد والانفال والزكاة والجنة .

لغة خالدة لمفاهيم خالدة :

وثمة نكتة هامة لم يلتفت اليها الباحثون الالتفات الواجب ولم يولوها ما تستحق من العناية بل لعلهم لم ينتبهوا اليها وهاانئذ اعرضها بين يدي الاخصائيين وقراء العربية عامة .

ان الاسلام جاء بعقائد ومفاهيم ثابتة لا تتغير ولا ينبغي ان تتغير ولكن اتى لنا ذلك واللغة تتطور

ودلالة الالفاظ او معانيها في تبدل مستمر في جميع اللغات ؟ وهنا نجد في اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة . ذلك ان من خصائص اللغة العربية ثبات الحروف الاصلية الثلاثة من كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف ع ل م فان جميع الالفاظ التي اشتقت او يمكن ان تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلومات والمعالم والتعليم والاعلام وغيرها من الالفاظ المشتقة من هذا الاصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الاصلي والمفهوم المشترك بين الالفاظ وهكذا تبدو خاصة بثبات الاصول في صورتها اللفظية ودلالتها المعنوية وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الاسلام لامكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه واحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند ابنائها دون ان تحدث فجوة واسعة بين الاصل اللغوي المستعمل وما انتهى اليه في صورته ومعناه وهكذا يبقى ابناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به . واما اللغات الاخرى فان الالفاظ فيها يعتريها التبدل والتحول في صورتها حتى تتغير حروفها واصواتها فلا تكاد تعرف اصلها وفي دلالتها المعنوية كذلك وبهذه الصورة يصبح بين الفاظ النص القديم وما انتهت اليه هذه الالفاظ في تطورها بون كبير يؤدي اما الى جهل المعنى القديم او الى الوقوع في خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على اللفظ الحديث او المعنى الجديد .

فالفاظ الحق والمدعى والقضاء والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والاجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من الفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس الى يومنا هذا .

مصطلحات جديدة :

وقد ظهرت بعد الاسلام مصطلحات لغوية في ميادين الفقه والكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والسياسة والادارة واصبحت جزءا من الثقافة الاسلامية وثبت الكثير منها في المعاجم اللغوية او على الاقل في اللغة العربية التي يستعملها الادباء والكتاب وربما دخلت لغات الشعوب الاسلامية باعتبارها مصطلحات اسلامية باللغة العربية كهذه الالفاظ :

(العقد الفاسد، المسافاة، الذات والصفات، والفناء ووحدة الشهود والمرض والجوهر والدور والتسلسل وامثالها) .

القرآن الكريم :

وقد كان القرآن العظيم عاملا قويا في كل ما تقدم لان المسلمين اجمعوا على ان القرآن بنصه العربي المنزل المحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرآن وان ترجمته الى اي لغة اخرى لا تسمى قرآنا وليس لها احكامه فلا تكون مصدرا للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيرا له باللغة الاجنبية وبناء على هذا الاساس حرص المسلمون على تعلم القرآن بنصه العربي حفظا او حفظا وفهما وبقدر الطاقة واكثروا من تلاوته تعبدا بحروفه العربية التي اضطروا الى تعلمها فكان ذلك عاملا هاما في تقوية هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة التي بيناها فيما سبق من كلامنا .

ومن اجل هذا ايضا كان من مداخل الشعوبية وطرائقهم ابعاد الناس عن الفصحى لاحلال العامية مكانها والدعاية لترك الحروف العربية والكتابة العربية والسعي لالغاء النحو العربي وافساد ملكة اللغة وذلك كله يؤدي طبعا الى ابعاد الناس عن الفصحى والى تفرقهم امما مختلفة والى تهديم هذا الجسر العظيم الذي يصل بينهم ومعهم الشعوب التي دانت بالاسلام وقرات القرآن وتعلمته وتعلمت الحرف العربي بل اتخذته اداة للغتها .

وبهذه الدراسة يبدو لنا الطريقان : طريق التشتت والتطفل على الغير وطريق الوحدة وثبات الذات والتحرر وذلك هو طريق الحرف العربي واللغة الفصحى والقرآن العظيم المنزل بلسان عربي مبين .